رحلات العرب في جزيرة العرب

(البلاد العربية السعودية ١٩٠١-١٩٧٢م)

بقلم : الدكتور منصور ابراهيم الحازمي

تمهيد :

لا تزال الرحلة ، حتى في عصرنا هذا — عصر الطائرات والصواريخ — مصدر متعة وعلم وثقافة ، وان فقدت ذلك البريق الذي كان يحوطها في الماضي ، وافتقرت الى عنصر الخيال والمغامرة ، حينما كان العالم متباعدا مجهولا ، ووسيلة الانتقال بدائية محدودة . ولكن الانسان رحّال بطبيعته ، توّاق أبداً الى المعرفة واكتشاف المجهول . فإن لم تتيسر له أسباب الرحلة ، أنصت الى الذين أوتوا الحظ في المشاهدة والتجوال . وليس من رأى كمن سمع .

وتراث الأمم حافل بالرحلات ، أبقى الزمن على بعضها ، فوصلتنا مدونة نقرأها ونلتذ بها ، ونرى فيها صورا صادقة لحياة الانسان القديم ، وصفحات من جهاده وأخلاقه ومعتقداته . هكذا رأينا العالم القديم من خلال ما دونه هيرودوت ، في تاريخه الشهير ، عن مشاهداته في مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وايران ، وما سجله بلوتارك ويوليوس قيصر وتاسيت وبطليموس ، من وصف الأصقاع والمواضع وأخبار الأمم والشعوب .

أما العرب فقد بزّوا الأمم التي سبقتهم فيما خلفوه من آثار في ميدان الرحلات . ساعدهم على ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وازدهار في التجارة والزراعة ، وتقدم في الحياة العلمية والثقافية ، هذا الى جانب عامل مهم آخر وهو العامل الديني ، الذي يقضي بشد الرحال الى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة البقاع المقدسة . والمكتبة العربية تزخر بعشرات الرحلات المطبوعة والمخطوطة التي تؤكد اهتمام العرب الأوائل بهذا اللون الطريف من الكتابة ، وتدل على حيوية ونشاط فائقين(١) .

ومع أهمية الرحلة وخطورتها وغناها في التراث العربي والإسلامي ، فانها لم تحظ بالاهتمام الكافي من جانب النقاد والباحثين المحدثين . وقد نبه الى ذلك مرارا الأستاذ حمد الجاسر في مجلته : «العرب» ، ووجه الأنظار ، بما كان ينشره من نصوص ودراسات ، الى أهمية الرحلة في الكشف عن حلقات تكاد تكون مفقودة مجهولة في تاريخ الجزيرة العربية(٢) .

وللدكتور شوقي ضيف كتيّب عن الرحلات ، لخص فيه أمهات الرحلات العربية ، مثل ابن جبير وابن بطوطة والمقدسي . وقد صنع صنيعه الأستاذ جورج غريّب في كتابه : «أدب الرحلة» ، غير أنه آثر أمين الريحاني بالجزء الأعظم من الصفحات . وكذلك فعل الدكتور

حسني محمود حسين في كتيّه : «أدب الرحلة عند العرب» ، الذي نشر في سلسلة المكتبة الثقافية المصرية ، فقد اكتفى بالحديث عن ابن جبير وابن بطوطة ، وأضاف اليها ابن خلدون ورفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق(٣) .

ولا شك أن هذه الجهود قيمة ، ولكنها لا تكفي ، ومعظمها لا يتجاوز منهجها التعريف أو التلخيص والعرض ، ولا تتكافأ مع ذلك الانتاج الضخم الذي خلفته العقلية العربية طوال القرون الماضية . ولعل أعظم كتاب اطلعت عليه في هذا الميدان هو كتاب المستشرق الروسي المعروف كراتشكوفسكي : «تاريخ الأدب الجغرافي» . اذ أنفق في جمع مادته وتأليفه سنوات طويلة ، وتتبع فيه الرحلات العربية منذ بدايتها حتى القرن الثامن عشر الميلادي . ويتميز منهجه بالدقة العلمية ، سواء في إحاطته بمادة موضوعه ، او في طريقة عرضه لها ومناقشتها وتحليلها . على أن كراتشكوفسكي لا يعني بكلمة «أدب» ، التي جاءت في عنوان كتابه ، المصطلح النقدي لهذه الكلمة ، بل يعني بها مدلولها العام . ويتسع هذا المدلول لتراث الأمة في جميع جوانبه الابداعية وغيرها . ويدل هنا على كل ما أنتجته العقلية العربية والإسلامية في أدب الرحلات الجغرافية بصورة خاصة .

والرحلة ميدان واسع يتنافس فيه التاريخ والأدب ، وربما فنون وعلوم كثيرة أخرى لا تدخل تحت حصر . ولكنها في بعض أشكالها فن أدبي خالص ، أو أقرب الى الفن الأدبي .

وكنت أبحث عن تحديد لأدب الرحلة ، بمعناه الضيق ، فلم أجد ، فيما اطلعت عليه ، ما يشفي الغلة . ولعل العرب ، وقد خلفوا لنا هذا التراث العظيم من كتب الرحلات ، لم يفكروا في إلحاقها بدائرة الأدب الخالص ، ومن ثم لم يعنوا بوضع القواعد لها ، كما فعلوا في فنون القول الأخرى ، من شعر وخطب ورسائل . وهم كذلك قد أهملوا فن القصة على الرغم من اعترافهم بفن المقامة ، وعلى كثرة ما خلفوه من تراث قصصي .

وربما كان للقدماء العذر في اغضائهم عن الرحلة ، وعدم اعترافهم بها كفن أدبي — فالرحلة ، كما ذكرت ، مزيج من فنون شتى ، وتختلف باختلاف كتّابها وأغراضهم منها . فرحلة ابن جبير ، على سبيل المثال ، كتبت في شكل مذكرات يومية ، تروي ما شاهده المؤلف في طريقه الى الأراضي المقدسة ، لأداء فريضة الحج ، وعودته منها(٤) . بينما اهتم ابن المجاور ، في كتابه : «تاريخ المستبصر» ، بما رآه في جنوبي الجزيرة العربية والحجاز الأوسط من المظاهر الشعبية المختلفة ، بالاضافة الى اهتمامه بوصف المقاطعات والطرق والمسافات(٥) . أما ابن بطوطة فقد تأثر تأثرا كبيرا بالمعتقدات السائدة في المغرب ، فكان يهتم اهتماما ملحوظا بأخبار الأولياء والدراويش وما يحكى عنهم من خوارق وكرامات(٦) . وغلب الطابع الأدبي على رحلة ابن معصوم الموسومة بـ : «سلوات الغريب وسلوة الاريب» ، إذ اتجهت الى السيرة الذاتية ، مع الاستطراد أحيانا الى بعض الموضوعات الأدبية ، وقد كتبها في وصف رحلة أسرته من المدينة المنورة الى الهند(٧) .

تلك نماذج قليلة لاختلاف الرحلات ، وتباين مناهجها واتجاهاتها وأشكالها . لهذا فقد

قسمها بعض الباحثين حسب موضوعاتها ، فعدّد للرحلات خمسة عشر نوعا ، هي : (١) الرحلات الحجازية ، (٢) الرحلات السياحية ، (٣) الرحلات الرسمية ، (٤) الرحلات الدراسية ، (٥) الرحلات الأثرية ، (٦) الرحلات الاكتشافية ، (٧) الرحلات الزيارية ، (٨) الرحلات السياسية ، (٩) الرحلات المقامية ، (١٠) الرحلات الفهرسية ، (١١) الرحلات العلمية ، (١٢) الرحلات الدليلية ، (١٣) الرحلات الخيالية ، (١٤) الرحلات السفارية ، (١٥) الرحلات العامة[٨] .

ورغم ما في هذا التقسيم من فائدة وراحة للباحث ، إلا أنه لا يخلو من اعتساف وقصور عند التطبيق . فقد تتجمّع في الرحلة الواحدة أنواع عدة . فرحلة ابن بطوطة ، مثلا ، حجازية ، سياحية ، اكتشافية ، سفارية ، زيارية ، علمية — وهكذا[٩] .

وهناك رأى آخر في تصنيف الرحلات العربية ، لعله أكثر دقة وشمولا وطواعية عند التطبيق . وهو الرأي الذي يعتمد على صلة الرحلة بكاتبها . فهي إما «ذاتية» ، تهتم بكل ما يقع للمؤلف من حوادث وأحوال أثرت في نفسه وفكره ووجدانه ، وإما «موضوعية» تركز على تسجيل الأشياء مجردة عن الذات . ومن النوع الثاني ما كتبه الجغرافيون العرب في علم المسالك والممالك ، فقد عنوا بقياس المسافات والطرق ووصف البلدان من النواحي الزراعية والاقتصادية والسياسية والعمرانية وغير ذلك . فالرحلة «الموضوعية» بهذا المفهوم ، أقرب الى التقرير العلمي ، الذي يهتم صاحبه بالدقة العلمية وايراد التفاصيل ، دون العناية بالأسلوب الأدبي ، أو التعبير عن الذات[١٠] .

ومع وجاهة هذا الرأي ، وقربه الى النظرة النقدية في تفسير النصوص ، فانه لا يخلو من ثغرات . ذلك لأنه غالبا ما يمتزج العنصران : الذاتي والموضوعي في الرحلة الواحدة . بل ان كثيراً من الرحلات العربية قد تبدأ كترجمة ذاتية لحياة الرحّالة نفسه ، ثم لا تلبث أن تتحول الى معجم يترجم فيه المؤلف لشيوخه والعلماء الذين التقى بهم ، أو الى مختارات أدبية ، قد تفيد الباحث في معرفة الذوق العام لذلك العصر[١١] .

ومن ناحية أخرى ، فقد لاحظنا ان لاتجاه الرحالة وثقافته وظروف عصره شأنا مهما في توجيه الرحلة ، وصبغها باللون الذي ينسجم مع النزعة الذاتية والظروف الموضوعية العامة . ونضرب مثالا على ذلك باهتمام العلماء بالجزيرة العربية أثناء عصر التدوين ، فقد كانوا في حاجة الى جمع اللغة ووضع قواعدها ورواية التراث الأدبي من أفواه القبائل — فلما استقرت أصول اللغة وجمع التراث ، لم يعودوا في حاجة الى شدّ الرحال وتكبد المشاق . وكذلك ترى عناية الرحالة المتأخرين بمشائخ الطرق الصوفية والأولياء والدراويش والصالحين ، وذلك لغلبة الجمود على الفكر الاسلامي في العصور المتأخرة ، وتفشي الجهل وأعمال الدجل والشعوذة بين طبقات الأمة[١٢] . وقد رأينا أن من الرحالة من أملت عليه اهتماماته او دراساته الخاصة العناية بجانب معين دون الجانب الآخر . فالمقدسي قد اهتم اهتماما شديدا بالسكان وأحوالهم [١٣] ، وناصر خسرو كان معنيًّا بابراز مواقفه وانطباعاته[١٤] ، كما اهتم الزمخشري بالمواضع في الجزيرة العربية وماله علاقة بالقرآن والسيرة النبوية[١٥] . الخ ...

ومثل هذا التنوع أو التلوين في كتابة الرحلة ، لا يزال مشاهدا حتى اليوم في الرحلات الحديثة التي قام بها أصحابها الى البلاد العربية السعودية منذ مطلع هذا القرن حتى الوقت الحاضر. فنهم من قام برحلة من أجل أداء فريضة الحج وزيارة الاماكن المقدسة ، فهو لذلك معنى بوصف الطريق ومواضع المياه واجراءات السفر وذكر المناسك والآثار الاسلامية التي شاهدها . ومنهم من قام برحلة لأغراض قومية سياسية ، وأشهرهم أمين الريحاني في كتابه : «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» . ولم يكن الريحاني بطبيعة الحال مهتما بوصف طريق أو مشاهدة أثر ، بل كان مشغوفا في الدرجة الأولى بالشخصيات التي كان يقابلها و يتحدث اليها ، ولاسيا الشخصيات السياسية . ومن الرحالة أدباء وصحفيون ساقتهم الصدفة أو المناسبة — فهم لذلك يتصيّدون الأخبار ويجمعونها و يكتبون ، فيا يشبه التقرير الصحفي ، عن مظاهر النهضة التي وصلت اليها بلادنا في العهد السعودي الزاهر.

ولكن الرحّالة مها كانت مشاربهم وأهواؤهم ، فانهم لا يستطيعون إغفال جانب الفضول في أنفسهم ، ومن ثم نراهم ، على تعدّد أغراضهم واتجاهاتهم ، يكتبون القليل أو الكثير عن العادات والتقاليد التي شاهدوها واسترعت انتباههم . وقد تكون هذه العادات والتقاليد سلوكا معينا أو طريقة في المأكل أو الملبس أو المشرب . وقد كتب بعضهم عن لغة أهل المدن ولغة بعض القبائل . كما أورد بعضهم نصوصا للأغاني الشعبية والبدوية التي سمعها ، الى غير ذلك من المظاهر الطريفة التي يراها الرحالة جديرة بالتسجيل .

وعلى هذا النمط تسير الرحلة ، فنا مختلطا لا يجمع شتاته سوى صاحب الرحلة . وللكاتب الحرية أن يكتب ما يشاء ، وبالطريقة التي يريدها . ومن هنا فان الرحلة أقرب في الحقيقة الى المذكرات التي يدون فيها كاتبها ، وبشكل عفوي ، ما حدث له أو سمعه أو شاهده في فترة معينة من حياته (١٦) . والرحلة فترة محدّدة في حياة انسان ، وهي غالبا ما تبدأ بتاريخ وتنتهي بتاريخ ، وقد تستمر اياما أو شهورا أو سنوات . غير أن بعض هذه الرحلات قد تنحرف عن الطريقة العفوية الى طريقة البحث العلمي ، الذي تلمس من ورائه الجهد ورشح الجبين . هكذا نرى رحلة محمد حسين هيكل : «في منزل الوحي» التي بلغت مئات الصفحات ، بينما لم يمكث صاحبها سوى بضعة أسابيع . ومن الواضح أن المؤلف قد أعدّ مواد كتابه قبل قدومه الى الحجاز بفترة طويلة وأمثال هذه الرحلات قد تشبع نهم القارىء المتطلع الى العلم والمعرفة ، ولكنها لا تشبع احساسه الفني ، اذ هي غالبا ما تفقد روح المفاجأة والعفوية ، وتتلاشى فيها الجوانب الانسانية للكاتب الى حد كبير.

وقليلة هي الرحلات التي يطلق فيها الكاتب نفسه على سجيتها دون تصنّع أو إعداد . ومن أبرز ما قرأت من هذا النوع رحلة الأديب ابراهيم عبد القادر المازني التي قام بها الى الحجاز سنة ١٩٣٠ م . في هذه الرحلة الكثير من شخصية المازني ، في عنفها ، وانطلاقها ، وسخريتها ، وتمردها . وهو لا يكاد يستقر على شيء ، ولا يكتب كما يكتب الصحفي أو المؤرخ ، بل يرسم بقلمه و يتفنن في صوره ، دون أن يتكلف ذلك ، بل هي فيه سليقة الشاعر وطبيعة الأديب . وكثيراً ما يعمد الى الأسلوب القصصي ، ويستخدم الحوار استخداما بارعا ، فاذا أنت أمام

لوحات فنية رائعة ، او امام شريط متحرك نابض بالحياة . وواضح ان المازني في رحلته هذه لم يقصد الى تقديم معلومات تاريخية أو آثارية أو اجتماعية ، كما فعل ابراهيم رفعت في «مرآة الحرمين» ، أو البتنوني في «الرحلة الحجازية» ، بل قصد الى امتاع القارىء وتسليته ، وهذا هو الهدف الذي يتوخاه القصصي أو الأديب بصورة عامة .

ويتبيّن مما قدمنا أن للرحلة وجوها مختلفة تجذب دارس الأدب أو الجغرافي أو المؤرخ أو الباحث الاجتماعي ، أو غير هؤلاء . وكلٌ ينظر الى الرحلة من زاويته الخاصة . لهذا ، فقد حاولت عند جمعي لمادة البحث ، أن التقط من بين الركام المتداخل في الرحلة ما يهم دارس الأدب في المقام الأول . وكنت أطمع في العثور على شيء مما كتب الرحّالة عن أدبنا في العهود الثلاثة : التركي والهاشمي والسعودي . ولكن قلة ما عثرت عليه في هذا الموضوع جعلتني أنصرف الى ما كتبوه عن الحياة الثقافية بصورة عامة . على أن ما سجلوه من مظاهر الحياة الاجتماعية ، بشتى صورها وألوانها ، يستحق التنويه ، لأنه يعبّر عن التطور التاريخي الذي مرت به بلادنا خلال فترة تزيد على السبعين عاما .

الرحلات الحديثة : بواعثها وأنواعها

صلات العرب بالجزيرة العربية قديمة منذ فجر الإسلام . بل إنها تمتد الى العصر الجاهلي حينما اندفعت أفواج من أبناء الجزيرة العربية لتعيش خارج حدود وطنها الأم — في الشام والعراق ، ولكن العرب بعد الفتح الإسلامي تغلغلوا في أعماق الأمصار البعيدة ، ولم يكتفوا بالعيش على حدود البادية . لقد حملوا الآن رسالة جديدة جعلتهم السادة بعد أن كانوا قانعين بالتبعية لفارس والروم .

أعطى الإسلام للجزيرة العربية أهمية خاصة ، جعلتها مطمح الأنظار في شتى العصور ، فهي مهد الإسلام من ناحية ، ومنبع اللغة التي نزل بها القرآن من جهة أخرى . وطبيعي أن يحتل الحجاز ، حيث الأماكن المقدسة ، المكانة الأولى في نفوس المسلمين ، وأن يكون الحج أهم باعث يدفعهم الى الرحلة . وعلى الرغم مما لقيته الجزيرة العربية من إهمال بعد انتقال مركز الخلافة عنها ، فقد ظلت للبقاع المقدسة مكانتها الدينية ، واحتلت مكة المكرمة مركزا ممتازا لا بصفتها الدينية فحسب بل لدورها الثقافي كذلك إذ كانت وما زالت «نقطة التقاء ومركز تجمع لجميع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية . ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة بين تلك الاقطار ، وكانت صلة وصل بين علماء الأقطار الإسلامية ، في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها في مختلف العصور الماضية»(١٧)

فالحج إذن هو العامل الرئيسي في توجه الكثير من قوافل الرحالة المسلمين الى الحجاز طوال القرون الغابرة : ابن جبير وابن بطوطة وابن المجاور والعياشي وغيرهم . وقد لاحظ الأستاذ

حمد الجاسر تفوق علماء المغرب العربي على علماء المشرق في هذا الميدان ، كما لاحظ عمق الصلات الثقافية التي تربط المغاربة والاندلسيين بالأراضي المقدسة . وهو يعدّد الكثير من العلماء المغاربة الذين رحلوا الى الحجاز لنشر العلم وتلقيه ،(١٨) كما يشير الى ما سجله الشيخ عبد الحي الكتاني من رحلات المغاربة فقد بلغت ستة واربعين كتابا ، ويقول ان هنالك العشرات من هذه الرحلات لا تزال مخطوطة تحفل بها مكتبات المغرب العامة منها والخاصة .

وهذه الرحلات لا تزال مخطوطة تحفل بها مكتبات المغرب العامة منها والخاصة(١٩)

واذا كان الحج ،وربما كذلك الرغبة في طلب العلم ، قد ساعدا على الاحتفاظ بتاريخ المدينتين المقدستين طوال العهود الماضية ، فقد فقدت بقية انحاء الجزيرة العربية مغريات الرحلة فظلت مجهولة لا يلتفت اليها حتى عهد قريب . بل ان الطائف ، على صلاته التاريخية بيده الدعوة وانتشار الإسلام ، وقربه من مكة المكرمة ، قد أهمل الكثير من تاريخه . ذلك لأن الرحالة الذين قدموا لغرض الحج والزيارة لم يكن يهمهم في الغالب سوى المدينتين المقدستين وما يمت اليهما من وصف الطريق وما إليه . فإن تحدثوا عما سوى ذلك فهم إنما يتحدثون في معظم الأحيان عن سماع لا عن خبرة ومعاينة(٢٠) . ويمكن القول انه كلما أوغلنا في داخل الجزيرة العربية ازداد جهلنا بتاريخها ، ومن ثم ضعفت الصلة بين تلك المناطق والعالم الخارجي .

ولقد ظل الحال على هذا المنوال حتى اوائل هذا القرن . وليس غرضنا هنا تتبع جميع الرحلات العربية الحديثة الى الجزيرة العربية بشكل عام ، بل أردنا ، كما حدّدنا في عنوان البحث ، الاقتصار على المناطق التي تضمها حاليا الدولة السعودية . وليس الهدف من التحديد سوى التسهيل على الباحث الالمام بجوانب الموضوع ، الذي سيتسع كثيرا لو فاضت أطرافه على جميع سواحل الجزيرة العربية . والمملكة بعد ذلك تضم معظم أجزاء الجزيرة العربية وأهم وأقدس بقاع فيها . وكثير من رحلات العرب المحدثين الى هذه البقاع ان هي الا استمرار لرحلات أسلافهم في العصور القديمة ، ومن ثم فهي ترضي الباحث المتطلع الى تحسس الصلات التاريخية العميقة وفحص الروابط المتأصّلة في النفس العربية والمقارنة بين القديم والحديث .

وغني عن القول ان المملكة العربية السعودية ، بحدودها الحالية ، لم تكن قد وجدت في مطلع هذا القرن ، وهو التاريخ الذي حددناه لبداية البحث . بل ان اسمها الرسمي لم يعلن الا في سنة ١٣٥١ هـ/١٩٣٢ م(٢١) ، حينما أراد الملك عبد العزيز آل سعود ، رحمه الله ، أن يعبّر عن تلك الوحدة السياسية التي صنعها بجهوده لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ولمّ بها الأطراف الضعيفة المتناثرة المتحاربة .

كانت تلك الأطراف إمارات صغيرة ، صنعتها السياسة ولم تصنعها الحدود الدينية أو اللغوية أو الطبيعية أو الاجتماعية ، وهي مستقلة اسما وخاضعة فعلا للقوى الأجنبية : الحجاز ونجد والاحساء والمنطقة الشمالية تحت سيطرة الأتراك ، وتهامة الادارسة متضامنة مع السياسة

البريطانية . وبعد الحرب العالمية الأولى ظلت بريطانيا تحرك الأحداث في الحجاز وتهامة . وكان عبد العزيز في هذه الأثناء قد تمكن من استعادة الرياض وضم المنطقة الشرقية والشمالية والجنوبية الى سلطته . ولم يكن توحيد هذه الامارات بالعمل السهل فقد استغرق جهدا مضنيا وكفاحا متواصلا امتد طوال الربع الأول من هذا القرن ، أو من تاريخ فتح الملك عبد العزيز للرياض سنة ١٣١٩ هـ/١٩٠٢ م ، حتى الاستيلاء على الحجاز سنة ١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ — ١٩٢٥ م . بل ان الجهاد في سبيل توطيد دعائم تلك الوحدة واستقرارها قد امتد الى ما بعد ذلك ، أي الى حين اعلان الاسم الجديد : «المملكة العربية السعودية» في ٢١ جمادي الأولى عام ١٣٥١ هـ الموافق ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ م(٢٢) . فالرحلات التي اتجهت الى احدى هذه الامارات قبل توحيدها ، لم تكن بطبيعة الحال معبرة عنها أو مصورة لواقعها السياسي والاجتماعي والثقافي بعد انضمامها الى الوحدة . فالحجاز ، على سبيل المثال ، في رحلة البتنوني سنة ١٩٠٩ م في عهد الأتراك ، يختلف عنه في رحلة هيكل سنة ١٩٣٦ م في أوائل العهد السعودي . ولا نقصد اختلافا في الطبيعة أو التاريخ أو الآثار ، أو تغيرا مفاجئا في معايش الناس وأخلاقهم وعاداتهم ، ولكننا نقصد اختلافا في طبيعة الحكم الجديد الذي أدخل كثيرا من الاصلاحات الجوهرية على البلاد مما جعلها تستقبل عهدا جديدا لم تعرفه من قبل . ومن أهم هذه الاصلاحات ، كما سنرى فيما بعد ، تحقيق الأمن والنهوض بالتعليم . لقد شغل البتنوني بمشكلة الأمن ، كما شغل الكثيرون غيره من رحالة العصور الغابرة . ولكن هذه القضية لم تعد تشغل هيكل بعد أن تحقق الأمن وزالت المخاوف في العهد السعودي الجديد . وهذا يدل على ضرورة التمييز بين العهود السياسية المتباينة عند دراستنا للرحلات العربية الى المملكة . على ألا يجنح هذا التحديد السياسي الى التكلف أو التعسف ، إذ لا بد من التمييز بين ما يقبل التغيير فجأة كقضية الأمن وبين ما يحتاج في تغييره أو تطويره الى عامل الزمن ، كأمور التربية والتعليم والقضايا الاجتماعية الأخرى .

ورحلات العرب في هذا القرن الى الحجاز قد صورت ثلاثة عهود سياسية مختلفة : العهد التركي الذي انتهى بالثورة العربية سنة ١٩١٦ ، والعهد الهاشمي من سنة ١٩١٦ الى تاريخ استيلاء الملك عبد العزيز على الحجاز سنة ١٩٢٤ م ، والعهد السعودي الذي يبتدىء في الحجاز منذ ذلك التاريخ حتى الوقت الحاضر . أما العهد الأول فقد مثلته في هذا البحث رحلتان :(٢٣) رحلة ابراهيم رفعت باشا المسماة : «مرآة الحرمين — أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية» ، وهي رحلات أربع قام بها الكاتب في مواسم الحج في الأعوام : ١٩٠١ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٨(٢٤) . أما الرحلة الثانية فهي رحلة محمد لبيب البتنوني التي قام بها الى الحجاز مرافقا للخديو عباس حلمي في أواخر عام ١٩٠٩ م ، في حجة سنة ١٣٢٧ هـ . وكانت رحلات ابراهيم رفعت في أواخر إمارة الشريف عون الرفيق ثم إمارة الشريف علي باشا ، بينما صادفت رحلة البتنوني بداية امارة الشريف حسين باشا ابن علي سنة ١٣٢٧ هـ .

أما العهد الهاشمي فقد مثلته ثلاث رحلات : رحلة الامام محمد رشيد رضا التي قام بها

الى الحجاز في اوائل ثورة الحسين على الأتراك سنة ١٩١٦ (٢٥) ، ورحلة خير الدين الزركلي : «ما رأيت وما سمعت» سنة ١٩٢٠ م ، ورحلة أمين الريحاني : «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» سنة ١٩٢٢ . والرحلتان الأخيرتان وقعتا ، كما نرى في أواخر العهد الهاشمي وقبيل استيلاء السعوديين على الحجاز بسنوات قليلة . ورحلة الريحاني لم تقتصر على الحجاز بل شملت معظم انحاء الجزيرة العربية : نجد وعسير واليمن ولحج والنواحي التسع المحمية والبحرين ، وكذلك العراق .

وفي أثناء العهد السعودي الحالي كثرت الرحلات وتنوعت ، ويكفي أن نذكر منها في هذا المقام : رحلة ابراهيم عبد القادر المازني : «رحلة الى الحجاز» ، سنة ١٩٣٠ م ، ورحلة الأمير شكيب ارسلان : «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف» ، حوالي سنة ١٩٣٠ م ، ورحلة محمد حسين هيكل : «في منزل الوحي» ، سنة ١٩٣٦ ، ورحلات عبد الوهاب عزام التي قام بها الى الحجاز وبعض مناطق المملكة الأخرى في أوقات متفرقة ابتداء من سنة ١٩٣٧ م ، ورحلة أحمد حسين : «مشاهداتي في جزيرة العرب» ، سنة ١٩٤٨ م ، ورحلة الدكتورة بنت الشاطىء : «أرض المعجزات — ورحلة الدكتور محمد بديع شريف : «في مهبط الوحي» ، سنة ١٩٦٣ م (٢٦) . ومما تجدر الاشارة اليه ، ان معظم هذه الرحلات التي ذكرنا في العهود السياسية الثلاثة ، قد توجهت الى الحجاز ، والى المدينتين المقدستين بشكل خاص . فهي من هذه الناحية انما تكمل تلك السلسلة الطويلة من رحلات والحج والزيارة» التي عرفها الأسلاف من المسلمين . وقل من تجاوز منهم حدود الحجاز الى المناطق المجاورة الأخرى ، أو من جمع بين أداء الفريضة الدينية وأداء الواجب العلمي في الكشف عن الحقيقة أو استكشاف المجهول . ولم يقدم على هذه المغامرة سوى رجل واحد ، لظروفه الخاصة ، هو تلميذ الرحالة الغربيين في هذا الجانب — أمين الريحاني .

أما الذين قاموا بزيارة بعض المناطق في نجد أو الأحساء أثناء العهد السعودي ، مثل أحمد حسين وبنت الشاطىء ، فقد فعلوا ذلك لأغراض صحفية أو سياحية ، فجاءت كتاباتهم مطابقة لأغراضهم .

والحقيقة أن إحجام الرحّالة العرب عن اقتحام مجاهل الجزيرة العربية قبل العهد السعودي ، يمكن رده الى عدة أسباب أهمها اضطراب الأمن من ناحية وانعدام الحافز من ناحية أخرى . ولم تكن حالة الأمن في الحجاز ، في العهدين التركي والهاشمي ، بأفضل منها في المناطق الأخرى ، ولكن توفر الحافز — وهو هنا الحافز الديني — يجعل للمغامرة معنى سامياً ترخص في سبيله الأموال والأرواح . أما ما عدا المدينتين المقدستين فلم يكن هناك من الأسباب ما يدفع الرحالة العربي الى الضرب في الفيافي وتحمل المشاق والتعرض للأخطار . وذلك عكس ما نراه عند الرحالة الغربيين الذين جابوا انحاء الجزيرة العربية منذ القرن السادس عشر ، وتحملوا في سبيل أهدافهم — علمية أو سياسية استعمارية — الكثير من الأذى ، بل وتجرع بعضهم غصص الموت — لقد توفر لديهم الحافز الى خوض المغامرة (٢٧) .

ولم يستأثر الحجاز بالمركز الديني فحسب ، بل كان قطب الرحى في السياسة العربية منذ اوائل هذا القرن ، ولاسيا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى واعلان الثورة على الأتراك سنة ١٩١٦ . وقد كان يجسد في أذهان الكثيرين من مفكري العرب خارج الجزيرة العربية الفكرتين : الدينية والعربية معا . فمحاولات الاستقلال عن الدولة العثمانية في اواخر القرن الماضي كانت مقترنة احيانا بالدعوة الى التقارب من الجزيرة العربية : مهد العروبة وموطن الإسلام . كما أن الحديث عن الخلافة الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد قد وجه الأنظار الى الجزيرة العربية ، والى إمكانية تأسيس خلافة عربية تعيد للإسلام مجده وتحفظ للعرب حقوقهم . ولا شك ان عبد الرحمن الكواكبي ، في كتابه «أم القرى» ، كان متأثرا بهذه الفكرة ، فهو يدعو الى جعل مكة المكرمة مركزا لجمعية «أم القرى» التي تضم ممثلين من جميع انحاء العالم الإسلامي . ويرى الكواكبي أيضا أن الجزيرة العربية هي أصلح البلدان الإسلامية لأن تكون مركزا للسياسة الدينية(٢٨) ، وأن أهلها أكثر الناس ملاءمة للمحافظة على الدين الإسلامي(٢٩) .

وعندما شبت الثورة العربية سنة ١٩١٦ ، ازدادت آمال العرب ، وظنوا ان حلمهم الطويل في الاستقلال والوحدة قد تحقق ، وازداد تبعا لذلك تعلقهم بالجزيرة العربية والحجاز بصورة خاصة . وقد عبر شعراؤهم وكتابهم عن ذلك بعشرات القصائد والمقالات(٣٠) . أما أمين الريحاني فقد فضل أن يشد الرحال من أمريكا الى الجزيرة العربية ، بعد أن كان يتابع أخبار العرب ويكتب عنهم وعن تحركاتهم من بعيد :

«رافقت العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب ، رافقتهم في المجلات الانكليزية والجرائد العربية ، فكنت أقوم في ما أكتب ببعض الواجب الذي يفرضه الحب والاعجاب . وتوفقت في تلك الايام الى زيارة الأندلس ، فوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطن ارفين كتابه النفيس ، فسمعت أصواتا تناديني باسم القومية ومن أجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط الوحي والنبوّة»(٣١) .

لقد تحققت أمنية الريحاني بزيارة الجزيرة العربية ولقاء حكامها والكتابة عنها وعنهم . كان يهدف ، كما يقول ، الى خدمة القضية العربية عن طريق تعريف حكام الجزيرة بعضهم ببعض ، وايجاد نوع من الوفاق بينهم(٣٢) . ولكن الوفاق لم يتم . ورجع الريحاني بخفي حنين .

كان الملك عبد العزيز آل سعود في هذه الأثناء يعمل ويخطط بصمت وحكمة . كان يجاهد — بعيدا عن الصخب والأضواء — في سبيل التوحيد وتحقيق تلك الوحدة ، عزيزة المنال ، والتي عجزت الآمال والوعود والمفاوضات عن تحقيقها . لقد استطاع عبد العزيز بما حققه من انتصارات حربية وسياسية واصلاحية أن يوجه أنظار العرب مرة أخرى الى الجزيرة العربية ، بعد أن كادت تنصرف ساخطة عنها إثر فشل الحسين وتقسيم البلدان العربية بين الحلفاء . يقول محمد حسين هيكل إنه لما استقر حكم عبد العزيز في الحجاز «بدأ الحديث عن

هذا العاهل المتحدي لبلاد العرب يتردد في صحف الغرب والشرق . وقد لقيت إذ ذاك غير واحد من الصحفيين المشهود لهم بالأناة ودقة الحكم على الأشياء والأشخاص . فكان أشد عجبي حين سمعت من صحفي هو الكونت فون بيرن الألماني المعروف ، مبالغته في الثناء على ابن السعود الى حد نعته إياه بأنه بسمارك الشرق . هذا وكان فون بيرن قد لقي ابن السعود وتحدث اليه وعرف مرامي سياسته(٣٣) .

لقد أسهم الحكم السعودي ، إذن ، بما وطده من دعائم الأمن وما أدخله من تطوير وسائل الحياة الحديثة ، في اجتذاب العديد من الكتاب والمفكرين والصحفيين الى زيارة البلاد السعودية والكتابة عنها . وقد كان كرم الملك عبد العزيز ، رحمه الله ، مضرب المثل ، وكانت الدولة تنفق بسخاء على ضيوفها حتى قبل اكتشاف البترول ، وحين كانت مواردها ضئيلة محدودة . ومن ناحية أخرى ، فقد كانت تدرك ، ما للاعلام من أهمية قصوى في كشف الحقائق ، ودحض ما يروجه أعداؤها من أباطيل ، ولاسيما بعد فتح الحجاز مباشرة وتوتر العلاقات بينها وبين بعض الدول العربية المجاورة . ومن هنا فقد قدم الى المملكة من العلماء والأدباء والصحفيين خلال هذه الفترة القصيرة من تاريخها ، ما لم تعهد له البلاد مثيلا في عهودها الغابرة .

يتضح من استعراضنا السابق أنه بالإمكان تقسيم الرحلات العربية الحديثة إما حسب العهود التاريخية التي وقعت فيها ، وإما حسب مصادرها والأهداف التي كتبت من أجلها . بل ان الباحث لا يعدم مناهج أخرى ، كأن ينظر مثلا ، في قالب الرحلة أو أسلوبها أو تعبيرها عن شخصية كاتبها ، أو تحري الخطأ والصواب في جانبها التاريخي أو غير ذلك . ونحن مع تسليمنا بأهمية هذه التقسيمات والمناهج الا أننا نفضل الأخذ بالتقسيم الموضوعي مع مراعاة الجوانب الأخرى بقدر الامكان ، مدركين مبلغ الصعوبة التي يواجهها الباحث اذا ما حاصرته الحدود والتقسيمات الضيقة . فاذا ما أخذنا هذا في الاعتبار أمكننا أن نميز في نصوص الرحلات العربية الحديثة الى البلاد السعودية بين مجموعات ثلاث :

المجموعة الأولى : رحلات الحج والزيارة
المجموعة الثانية : الرحلات السياسية
المجموعة الثالثة : الرحلات الصحفية .

وسنتناول كل مجموعة من هذه المجموعات بكلمة نبين فيها أهدافها وظروفها التاريخية وخصائصها العامة .

أولا : رحلات الحج والزيارة :

ذكرنا أن الباعث الديني باعث قديم منذ فرض الله الحج على المسلمين وجعل الرحلة في سبيله ركنا من أركان الإسلام (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . كما أشرنا الى أن رحلات العرب المحدثين الى الديار المقدسة ليست الا

استمرارا للرحلات التي كان يقوم بها أسلافهم. وقد عبرت هذه الرحلات عن أهدافها في أسمائها. إذ كثيرا ما نرى الكتّاب يستوحونها من البقاع المقدسة «مرآة الحرمين»، «الرحلة الحجازية»، «في مهبط الوحي» الخ. وكثيرا ما تشرح المقدمة الظروف التي أحاطت بالرحلة والأغراض الدينية التي من أجلها قام المؤلف بتدوين رحلته أو وضع كتابه. يقول ابراهيم رفعت: «كنت وأنا بالحج مشغوفا بأداء هذا الفرض. متضرعا الى الله أن يوفقني لرؤية بيته الحرام ومن كتمه [illegible]. فمنّ الله عليّ بالاجابة بعد الاهابة وبارك لي في دعوتي كما بارك لابراهيم في دعوته نصيبه حتى حبب امه الى يوم القيامة وعمرت قطرها بالحدب وبشرت فيه المدنية الصادقة والشريعة القائمة. فعينت في سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠١ م) رئيس حرس المحمل (قومندانه) فرأيت أن نعمة الله علي لا يفي بشكرها الا تدوين رحلتي من أول خطوة فيها الى آخر خطوة. وإخراجها للناس ليتمتعوا بها ويستضيئوا بنورها اذا حجوا الى البيت الحرام أو قصدوا الحجرة. فلم أدع صغيرة ولا كبيرة مما رأيت أو سمعت الا قيدتها ...»[٣٤] ولقد وفق الله المؤلف الى الحج ثلاث مرات أخرى بعد حجته الأولى، كان فيها أميرا للحج المصري. وكتب فيها الأسباب التي جعلته يتكبد المشقات الطائلة في سبيل خروج هذه الرحلات الأربع ونشرها. «ولقد كان من أكبر البواعث على إخراج هذه الرحلات وتكبد المشقات الباهظة في سبيلها أنها أبين شرح لفرض من فروض الدين وأصدق لسان يصف مهد النبوة ومبعث التشريع وانها لتكشف لك عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والأماكن التي شرفت به حتى كأنك ترى رأي العين»[٣٥]

أما البتنوني فقد كان مرافقا للخديو عباس الثاني أثناء ادائه فريضة الحج. وكان «منصوبا خصوصيا في خدمة ركابه بعالي مدة سفره الى الأقطار الحجازية» وبعد عودته أمره الخديو أن يضع شيئا «عن هذه الرحلة المباركة»[٣٦]. ويقول البتنوني: «... ولما كانت هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوي البصيرة والمعرفة ... رأيت أن أضيف الى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة»[٣٧] ويقول أيضا:

«... واني في قيامي بهذا الواجب الأقدس لم أقتصر على الكلام في النقط الدينية، بل تناول بحثي ما يهم القارىء من المسائل العمرانية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية مما لم يسبقني اليه أحد من الذين كتبوا عن هذه الديار»[٣٨]

ويتضح من مقدمتي رفعت والبتنوني انهما كانا ينظران الى كتابة الرحلة من الزاوية الدينية فهي بمثابة التعبير عن الشكر لله عز وجل على تحقيق أمنيتهما في الحج والزيارة. وتوخي المثوبة على عمل الخير وتبصير المسلم بأموره الدينية. هذا فانه على الرغم مما كتب عن مكة والمدينة منذ فجر الاسلام حتى العصر الحاضر. فلا يزالان ينظران الى هذه البقاع على أنها «مجاهل» لا بد من اعادة اكتشافها. ولا بد من تضمين الرحلة قدرا كبيرا من المناسك والشعائر المتعلقة بالحج والزيارة. وقد أدى ذلك، بطبيعة الحال، الى تضخم الرحلة وتحولها الى ما يشبه كتب السير والمراجع الفقهية والتاريخية. ويكفي أن نلقي نظرة خاطفة على كتاب البتنوني لنتبين هذا الاتجاه في كتابة الرحلات. فقد بدأه بتمهيد استغرق اربعا وخمسين صفحة تحدث فيه عن

الأمة العربية من العماليق وعاد والمعينيين وطسم وجديس وثمود وسبا وحمير وملوك الحبشة قبل الإسلام. ثم تحدث عن الأمويين والعباسيين والتتار والترك ... وفي نبذة جغرافية عن الجزيرة العربية وأقسامها وتاريخها الحديث. وهو يكتفي بما أورده في تمهيده، بل إنه كثيراً ما يقطع سلسلة الحوادث في رحلته ويرجع إلى مصادره التاريخية مستطرداً، كما يورد بعض المناسك والأدعية أو يفرد لها فصولاً مستقلة(39).

وإلى جانب الباعث الديني في رحلتي رفعت والبتنوني، فهناك الباعث الدنيوي الذي لا ينبغي أن نغفله. فلا ننسى أن كلا المؤلفين إنما قدم إلى الحجاز بصفته الوظيفية. فكان رفعت رئيس حرس المحمل المصري ثم أمير الحج. وكان البتنوني منتدباً لمرافقة الخديو مدة قدومه بالحجاز. ومن الطبيعي أن يحرص كل منهما على تنفيذ ما أسند إليه من مهام، وأن يولي الجانب الوظيفي كل عناية واهتمام. وتشبه وظيفة البتنوني وظيفة الصحفي المرافق لرئيس الدولة والمكلف بتغطية أخبار سيده وتنقلاته. وقد كتبت الرحلة كما رأينا بناء على تكليف رسمي من الخديو نفسه(40). أما إبراهيم رفعت فقد كان مكلفاً، بحكم منصبه، بكتابة التقارير المطولة عن رحلته ورفعها إلى جهة الاختصاص في الحكومة المصرية.

ولا شك أن الجانب الرسمي في رحلتي البتنوني ورفعت قد أثر تأثيراً كبيراً لا على آرائها ومواقفها من حياة الناس في الحجاز فحسب — وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد — بل على قالب الرحلة نفسها من حيث الشكل. فكثيراً ما تطغى النزعة التقريرية على أسلوب الكاتب. بل وكثيراً ما نواجه بالتقارير الرسمية المطولة مدمجة بين الفقرات والفصول. وقد يكون لهذه التقارير أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخ والباحث. ولكنها ليست كذلك للقارىء العادي. ولعلها تبعث الملال وتخيب ظن من ينشد اللذة الفنية أو من يبحث عن العناصر الجمالية في الرحلة(41).

وقد تطورت رحلة الحج والزيارة على يدي محمد حسين هيكل تطوراً ملحوظاً. فهي لم تعد تعنى بتكديس المعلومات أو النقل من المصادر القديمة والحديثة كيفما اتفق، بل أصبحت تختار منها ما يناسب المقام، وما يعبر عن الموقف الشخصي للمؤلف نفسه. والحقيقة أن هيكل يختلف كل الاختلاف عن رفعت والبتنوني في نزعته الفكرية ومذهبه واتجاهه الأدبي وتمكنه من الأساليب العربية في المنهج والصياغة. ولم يكن دافع هيكل لزيارة الأماكن المقدسة أداء مناسك الحج والزيارة فقط، بل كان همه الكشف عن حقيقة هذه البلاد واختيار القدر الذي أهلها للوحي والرسالة على نحو يقنع تفكير هذا العصر. وكان ما كتبه العلماء الأجانب بعيداً عن تناول الظاهرة الروحية التي غيرت وجه التاريخ منذ أربعة عشر قرناً. وبقي متصلاً عاملاً خالد الأثر في حياة العالم ما كان للقوة الروحية في توجيه نظامه أثر وسلطان»(42) فزيارة المؤلف للبلاد، كانت من أجل غرض معين، وهو غرض علمي، بعد استكمالاً لمباحثه في السيرة النبوية عندما كان بصدد كتابة فيها عن «حياة محمد»(43). لقد أراد هيكل أن يسلك سبيل العلماء التجريبيين الذين لا يطمئنون إلا إلى ما يكتشفونه بأنفسهم ويختبرونه بحواسهم «فالقراءة لا تغني عن التجربة والمعاينة ... شعرت آخر الأمر بأني سأظل ينقصني جوهر ما أبحث

عنه «إنه ذهب الى بلاد النبي العربي صلعم ، ورافقه حيث وقف في أدق ما مر به أثناء حياته ...»(٤٤) .

كان هيكل دقيقا في رسم خطة بحث لرحلته وتحديد ما يريده منها . فجاءت هذه الرحلة ، على ضخامتها ، واضحة المعالم ، مترابطة الأجزاء الى حد كبير . وآثار النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة متفرقة في مواضع متعددة من الحجاز . استطاع المؤلف أن يتتبع معظمها وأن يربط بعضها ببعض برباط دقيق من المنهجية العلمية . وسيلته الى هذا الربط بين الحقائق ترتيبه بطريقة تشعر القارئ وتستحضر صور الماضي حيث تمثلها أمامه شريطا يتحرك فتحس هذه النفس وتنفعل بحوادثه ومواقفه ونشارك فيه بعواطفنا وأفكارنا

ثانيا : الرحلات السياسية

لا تكاد تخلو رحلة من جانب سياسي . ولكن الرحلة العربية الوحيدة التي تغلب عليها الطابع السياسي من أولها الى آخرها هي رحلة أمين الريحاني الشهيرة «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» ، وقد طوف فيها ببلدان عربية كثيرة في الجزيرة العربية . بدأها بالحجاز في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٢٢ م ، الموافق للثامن من رجب سنة ١٣٤٠ هـ . والمؤلف لا يخفي هدفه من وراء هذه السياحة اذ يؤكد في مقدمته «انه إنما قام بوضع كتابه من أجل خدمة القضية العربية ولكي يعرّف الحكام العرب بعضهم بعضا . فليس في ملوك العرب اليوم ملك ساح في البلاد العربية كلها . وليس فيهم من يستطيع أن يقول إنني أعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لدي من تقارير العارفين والحذرين المنزهين عن الأغراض السياسية والنعرات المذهبية»(٤٥) ويصف الريحاني هذا الجهل المطبق بأحوال الجزيرة العربية . وأن تكون وزارة المستعمرات بالحكومة البريطانية هي الجهة الوحيدة العليمة والمتخصصة في هذا الميدان ، فهي تصدر نشرة بعنوان . تستقي معلوماتها من تقارير وكلائها السياسيين وما يكتبه الرحالة من العلماء الغربيين . وتقوم بتصحيح هذه النشرة وإعادة طبعها كل بضع سنوات ومع ذلك . فان هذه النشرة لا تخلو من الأخطاء . وتوزيعها مقصور على الدوائر الرسمية(٤٦)

والريحاني لا ينكر هذه المهمة السياسية التي ندب نفسه أو ندب للقيام بها . فبالاضافة الى العنوان الرئيسي لرحلته «ملوك العرب» . فهو يذكر صراحة أن كتابه يحوي جانباً سياسياً «وليس في الكتاب ، اذا كان وصفا أو سياسة ، وصفا أو نقدا إلا الحقيقة المجردة»(٤٧) وهو يقول بعد زيارته لكل من الحجاز واليمن وعسير «هاهنا تنتهي مهمتي السياسية في اليمن وعسير رغبت في خدمة الامام يحيى [بتقريب قضيته من فهم الانكليز ومصلحتهم . وبتقريب الانكليز من عقلية الامام . وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين

الادريسي . فاقترحت ان يعقد مؤتمر يدعى هو وخصومه فيه الأمراء ويتعارفون ويتفقون . فأبى حفظه الله لأسباب ذكرها ولا سبيل الى ذكرها ـ الامام طامع بالاستيلاء على مملكته . وهو طامع كذلك . على ما اظن . بالمخلاف الذي لا يعترف به للملك حسين . ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز ونجد وعسير في مدة ولو بخيط من حرير . لاعتقادي ان جلالته يمثل فكرة عربية قومية شريفة . فلم يوفق لواحدة منها ولا أحسبه مستحسنها لأسباب ذكرها ولا سبيل الى ذكرها . وهو لا يعترف للامام يحيى ولا للسيد الادريسي بأن جلالة الملك حسين هو ملك العرب . ويكفيهم منه اليه ان الولاء والمؤازرة وعطفهم من هو حجر عثرة الآن في سبيل نهضة عربية "(١٩)

وعلى رغم ما يؤكده الريحاني في مقدمته من انه قد اخذ على عاتقه المهمة الشاقة في التوفيق بين ملوك العرب متطوعاً وخدمة للقضية العربية . الا ان الشكوك قد قامت حوله وحول مهمته ، وقد صورها المؤلف نفسه رواية عن الملك عبد العزيز آل سعود في مقابلة له معه ، قائلاً لنا انك اميركي جئت تنشر الدين المسيحي في البلاد العربية . وقالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات . وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريك تسعى لتحقيق دعوة الشريف . وقالوا غير ذلك . فقلت اذا كان في الرجال من يبصر فهو يعرف كيف يتقيه . واذا كان فيه من يبغي فيعرف أيضاً كيف نتقيه . ونحن فهمنا يا حضرة الأستاذ مهمتك . بارك الله فيك "(٤٩) وفي مقابلة اخرى يذكر الريحاني ان الملك عبد العزيز اطلعه على خطاب من الملك حسين وانه غضب لما فيه من تطاول على سلطان نجد عبد العزيز . ثم قال : "رأيت يا حضرة الأستاذ ؟ لا تقل لي ان لا دخل لك بالسياسة وانك سائح في بلادنا سياحة علمية فقط . اخبرنا عنهم ومن يده على لحيته . وهو يسميه بجلالة "(٥٠)

والحقيقة أن في مهمة الريحاني ما يدعو الى الشك والتأمل . فلقد قدم المؤلف الى الجزيرة العربية في فترة حرجة من تاريخها الحديث ، وبعد ان حمي البأس على النفوس ، بعد فشل حسين واخلاف بريطانيا بوعودها ، وتقسيمها مع شريكتها فرنسا ما تبقى من تركة الرجل المريض . فهل قدوم الريحاني في هذه الفترة من بريطانيا التي كانت ترغب في ايجاد حل للأوضاع المتأزمة في الجزيرة العربية آنذاك ؟ قد يدعم هذا الرأي عدة أمور . أولها أن هذا المسلك لم يكن غريباً على السياسة البريطانية . وقد فعلت مثله في تمهيدها للثورة العربية حين أرسلت رسائلها ، كما يقول خير الدين الزركلي ، الى امراء الجزيرة العربية يجوسون هذا ويذكرون ذلك "(٥١) والأمر الثاني انه من غير المعقول أن يقوم الريحاني بمحادثاته السياسية مع زعماء العرب بصفته الشخصية . إذ انها محادثات تتمحور حول الحدود في الامارات العديدة والمقابلات الصحفية الاستطلاعية الى حد صياغة العهود وابرام الاتفاقيات بين الامارات العربية . ومن رحلاته ما توطدت علاقات الصداقة بينه وبين وكيل بريطانيا السياسي في الحديدة(٥٢) . وكان يرافقه في رحلته لمقابلة الادريسي في جيزان .

ومن ناحية أخرى . فقد يقال دفاعاً عن الريحاني إنه لم يكن الوحيد الذي جذبته الأحداث السياسية في الجزيرة العربية آنذاك . فقد سبقه الكثيرون من الاخوة العرب الذين

أسهموا في الثورة العربية، وكانوا شركاء في التخطيط لها وفي إشعالها. ومن أولئك مسلمون ومسيحيون على حد سواء، قدموا من الحجاز فرارًا من مصائر الاتحاديين، رأوا في الحسين القائد الأكبر، فعاونوه في ميدان السياسة وفي ميدان الحرب. وكان منهم الوزراء والسفراء والقواد والمستشارون والصحفيون والإداريون الخ. ونذكر على سبيل المثال: يوسف ياسين وخير الدين الزركلي وفؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب ونوري السعيد وكامل القصاب وسليم سركيس وقسطنطين يني الخ. ولم يكن الريحاني، إذن، بدعًا بين هؤلاء، غير أنه قد وسع دائرة اتصالاته فشملت كافة الزعامات العربية. وذلك تبعًا لتغير الأحوال السياسية أثناء الفترة الحرجة التي قدم فيها. فبالإضافة إلى تنصيب فيصل بن الحسين ملكًا على العراق، وإنشاء إمارة شرقي الأردن لأخيه عبد الله، فإن نجم الحسين في الحجاز قد أخذ في الأفول، وانفض عنه كثير من السياسيين العرب الذين كانوا ملتفين حوله إبان الثورة(٥٣).

وقد يقال أيضًا إن الريحاني لم يأت في كتابه بما يخالف ما أعلنه من أهداف ومبادئ، فهو عربي النزعة، يهيم في العروبة حبًا ولغة وتاريخًا، ويكاد يبلغ به هذا الحب حد التعصب. نرى ذلك كله متمثلاً فيما نقله المؤلف في رحلته من أحداث وصور وأفكار، إذ تكاد العروبة تتحول على يديه معيارًا يحتكم إليه في الفصل بين الحسن والسيء أو الفضيلة والرذيلة(٥٤). ولم يكن حبًا طارئًا، بل نتيجة تأمل وتفكير طويلين – شعور بالضياع سنوات طويلة في المهجر الأمريكي، وقراءات واسعة في كتب الرحالة الغربيين الذين ساحوا في أرجاء الجزيرة العربية من أمثال بركهارت وبرتن وداوتي، وفي كتب المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عن الأمجاد الإسلامية من أمثال كارليل وواشنطن إرفنج، وإعجاب لا حد له بالتراث العربي القديم ولا سيما آثار أبي العلاء المعري «ورحت أفاخر بأني من الأمة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم»(٥٥).

ومهما يكن من أمر، فإن الريحاني قد استطاع، رغم العقبات والمشاق، أن يخترق الحدود لأول مرة بين شتى الإمارات العربية الصغيرة المتنافسة، وأن يحمل فكرته إلى الأمراء والملوك العرب. وهو وإن فشل في مساعيه السياسية، فقد حقق نجاحًا كبيرًا في كتابة الرحلة، وتسجيل تلك الحقبة الهامة في تاريخ الجزيرة العربية المعاصر.

والرحلة السياسية، كما كتبها الريحاني، نمط فريد، إذ مزج فيها بين الماضي والحاضر، بين التاريخ والسياسة، وطبعها بطابعه الشخصي وفلسفته وأفكاره، ولونها بخياله الشعري وأسلوبه الأدبي المتأنق المتدفق. ولعل أهم جانب فيها رسمه الذكي للشخصيات السياسية، ومحاولة استبطان نوازعهم وأفكارهم. وهو يكتب عن الشخصية في مناسبات عدة، ويحرص على نقل الموقف كما هو، فلا ينسى ظروف المقابلة وسمات الشخصية، من ناحية الشكل والهيئة والسلوك، مسجلاً النظرة والحركة والإشارة. ويستخدم العبارات القصيرة الرشيقة الموحية. وفي كثير من الأحيان يحاول تقريب الحوار من الواقع باستخدام كلمات الشخصية أو «اللازمة» التي ترددها. وهو بارع في التصوير الدرامي، ولكنه واقعي، وقد يكتب عن انطباعاته بطريقة صريحة مباشرة.

في كتاب «ملوك العرب» عمل الريحاني في بيانه وأسلوبه وتأثيره. وقد استحوذ على اعجاب الكثير من النقاد والباحثين بما فيه من روح غريب. «أقل ما يوصف به أسلوب هذا الكتاب أنه ذهبي. عبقري فيه رونق في عهد المعلاق مشرق على نفسه. وهو مشرع للأسلوب في وجه مرض وهو بين البلاغة من مبلغ أن مليئة تقوم الدنيا وتقعد على حسناته. بكثرة ما يؤرخ ويصف ويعلل متجاوزا حدود التاريخ والوصف والتحليل الى مناحي الفلسفة والفن والأدب والاجتماع. فالسرد على ريشته محبوب للعين ومكر مرخي الأعنة. يصف ابتاحه بعلم صحيح ورأي مقرونة بالمواهب. ومشاهدات مشفوعة بالتمحيص لحقائق الأمور. وأدب يعلو بالنثر القصصي الى أوج التعبير»(56)

ذكرنا أن الطابع السياسي يغلب على رحلة الريحاني. أما رحلة خير الدين الزركلي «ما رأيت وما سمعت» فيغلب عليها الطابع الشخصي. ومع أن قدوم كاتبها الى الحجاز كان أشبه باللجوء السياسي. يقول الزركلي إنه فر من دمشق عقب هزيمة السوريين في موقعة ميسلون سنة ١٩٢٠ م. وتوجه الى مصر عن طريق فلسطين. وقد حكم عليه الفرنسيون غيابيا بالاعدام مع مجموعة أخرى من الأحرار السوريين، منهم كامل القصاب وشكري القوتلي وتوفيق اليازجي. وبعد أن أقام في القاهرة بضعا وشهرين توجه الى الحجاز بناء على دعوة من الشريف الحسين. وكان الزركلي قد كتب اليه خطابا من مصر يعلمه بقدومه ويستفسر عما ينوي الشريف عمله لمقاومة الفرنسيين. ويقول الزركلي إنه سافر الى الحجاز [illegible] حجازي يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٠ م الموافق ٦ محرم سنة ١٣٣٩ هـ(57). وقضى في ضيافة الحسين أكثر من ثلاثة أشهر(58). رجع بعدها الى مصر في يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٢١ م. الموافق ١٣ جمادي الأولى سنة ١٣٣٩ هـ(59).

ويبدو أن الزركلي قد قدم الى الحجاز، كما يبدو من حديثه، مستنجدا بالشريف لنصرة سوريا والوقوف بجانبها في محنتها. إلا أننا لا نراه يذكر شيئا عما دار بينه وبين الحسين في هذا الموضوع. اللهم إلا ما جاء في قصيدة ألقاها أمامه في احدى المناسبات. يذكر فيها ما تكابده سوريا من ويلات الاحتلال الفرنسي. ويستحثه على النهوض لنجدتها. يقول فيها:

يا ابن بنت النبي أرهقنا العسف ، مجرد لـــه الحسام الرقيقــــا
والـــذي شاد «مكــة» و «منى» وأحـــاط الهداة «بيتـــا» عتيقـــا
بالصفا . بالحجون . بالركن . بالكعبة . لـب الصريخ وانصر الحقوقـــا
إن في الشام أمـــة لا تطيق الضيم . تـــأبى لها العلى أن تطيقـــا
أوسعوهـــا تعلـــة ووعـــودا وسقوهـــا من الخـــداع رحيقـــا
أنـــذروها بالموت . ما أعذب الموت إذ كـــان للحيـــاة طريقـــا(60)

وفيما عدا هذه القصيدة لا نجد في الرحلة ما يدل على أن الزركلي قد فاتح الحسين أو فاوضه في أمر سوريا، مع أنه أقام في «دار الحكم»، وكان يحضر مجالسه ساعتين كل ليلة طيلة مدة اقامته التي تزيد على التسعين يوما(61). ومع ذلك. فإن الزركلي قد أفاد من هذه الاقامة الطويلة بجوار الحسين. فكتب عنه وعن أولاده الأربعة — علي وفيصل وعبدالله وزيد

صفحات مهمة لا يستغني عنها الباحث في تاريخ هذه الفترة ، كما أنها تاريخ الثورة العربية وما انبثق عنها من أحداث وتطورات معروفة . أما بعض صفحات ترجمته فقد خصصها المؤلف للحديث عن رحلته من مكة إلى الطائف(٦٢) . وهنا يرى الزركلي لعله عشق البلد لا يكتفي بما يشاهده أو يسمعه بل يرجع إلى مصادر قديمة للتثبت والتصويب والمقارنة . وهو في هذا الجزء رائد ولا شك لمن أتى بعده من الباحثين المهتمين بتاريخ المعالم وتحقيق المواضع

لقد شغل الزركلي في رحلته بالتاريخ والآثار والتقاليد والبدو وآدابهم عن الخوض في السياسة ولعله كان يائساً من قدرة الحسين على تغيير الأحوال في سوريا . وبعض ما اتفقت عليه الدولتان العظميان بريطانيا وفرنسا . وهو يعبر عن خيبة أمله هذه متمثلاً بقول الشاعر

وارحمتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا(٦٣)

بل لعل ظروفه الخاصة قد حالت بينه وبين تحديد موقفه بوضوح صريح كما فعل الريحاني فالزركلي لم يكن سوى أديب مناضل ، لم عينه وحريته من بطش المستعمر وهو بعد ذلك من رعايا الدولة الهاشمية أثناء حكمها القصير في سوريا ، وعلاقته بالحسين أشبه بعلاقة المواطن بولي أمره . ولا يستبعد أن يكون جلالته قد أسر إليه ببعض الأمور . وأسند إليه بعض المهام أثناء زيارته تلك . يدلنا على ذلك ما ذكره الزركلي في ترجمته الشخصية في « الأعلام » إذ يقول إنه بعد عودته من الحجاز إلى مصر منحته الجنسية العربية في الحجاز سنة ١٩٢١ ، وأوفده الملك حسين بعدها لمساعدة ابنه عبدالله أثناء توجهه إلى شرق الأردن . وبعد تأسيس الحكومة الهاشمية في عمان كان الزركلي من أوائل المعينين فيها مفتشاً عاماً للمعارف ثم رئيساً لديوان رئاسة الحكومة من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٣ م(٦٤)

الرحلات الصحفية :

ونقصد بها ذلك النوع من الرحلات القصيرة التي يقوم بها بعض الصحفيين والأدباء العرب إلى البلاد بين حين والآخر ، لتغطية حدث بعض المناسبات المهمة أو لمجرد الاستطلاع . وقد تتم هذه الزيارات بناء على دعوة رسمية من الحكومة ، أو على مبادرة شخصية من الكاتب نفسه . وربما صادفت الزيارة موسم الحج ، فتمكن الكاتب من أداء الفريضة . وجمع بذلك بين الواجب الديني والعمل الصحفي

ولعل أول مناسبة مهمة استقطبت اهتمام الصحفيين ، في العهد السعودي ، كانت انعقاد المؤتمر الأول للعالم الإسلامي بمكة المكرمة سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) استجابة لدعوة المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود . فقد شهد ذلك المؤتمر عدد من الصحفيين العرب . من بينهم السيد محمد علي الطاهر ، صاحب جريدة ومطبعة الشورى ومندوب جريدة اللواء المصري ، لسان حال الحزب الوطني ، الذي قام بتغطية عامة في المؤتمر . ونلخص عمله في

كتيب بعنوان «صحيفة موجزة بأعمال مؤتمر العالم الإسلامي الأول بمكة المكرمة عام ١٣٤٤ هـ». وضمنه نص الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك عبد العزيز في افتتاح المؤتمر، وبيان جلالته الموجه إلى المؤتمرين[٦٥] ويغلب الطابع الرسمي على الكتيب ولا نستطيع أن نسميه رحلة. ولكنه كان البداية للرحلات الصحفية التي لم تكتف بتعقيب الأخبار، بل ستحاول أن تصور بعض جوانب الحياة العامة في البلاد. وأن تعبر عن موقف ورأي معين.

في سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م. نشر السيد محمد شفيق أفندي مصطفى كتابا بعنوان «في قلب نجد والحجاز». ووصفه بأنه «سلسلة مقالات سياسية اجتماعية دينية. تتضمن حقائق ومشاهدات في قلب شبه الجزيرة العربية. هي بمثابة رحلة تدوينها قبل الآن، وقد نشرت تباعا في جريدة السياسة»[٦٦] ويشير المؤلف إلى النهضة الجديدة في العهد السعودي، وبعد توحيد القطرين العربيين نجد والحجاز في حكم واحد. قد حضر الكثيرين إلى استطلاع الأحوال والوقوف على الحقائق عن كثب. ويقول إن سمو الأمير سعود، أثناء زيارته مصر آنذاك. قد دعا عددا من المصريين لزيارة بلاده «واستطلاع شؤونها ونشر الحقائق مجردة عن سفسطة المتطفلين بالصدد ممن لا يزالون يجهلون عنها كل شيء»[٦٧]

وفي سنة ١٩٣٠ م قام الأديب المعروف إبراهيم عبد القادر المازني برحلته إلى الحجاز، سماها «رحلة الحجاز»، لم يذكر فيها أسباب الزيارة، ولكنه أشار إلى الاحتفال بمبايعة عبد العزيز ملكا على الحجاز[٦٨]. كما تحدث عن المأدبة التي أقامها الأمير فيصل نائب الملك في قصر الكندرة، وحضرها الوفد مع رفاقه من الوفد المصري. كما حضرها معتمدو الأحزاب في جدة. «وخطب فؤاد بك حمزة في ختام المأدبة خطبة مفصلة عن مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز. وعما قامت به الحكومة السعودية من الإصلاح. وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة»[٦٩] ويذكر المازني من رفاقه القادمين معه من مصر أحمد زكي باشا، شيخ العروبة، ونبيه بك العظمة، وخير الدين الزركلي[٧٠] وفي كتاب محمد حسين هيكل «في منزل الوحي» ما يلقي بعض الضوء على رحلة المازني، فقد أشار هيكل إلى أن الحكومة السعودية قد دعت، في منتصف شتاء ١٩٣٠ م. الصحافة المصرية لزيارة الحجاز بمناسبة تتويج الملك عبد العزيز. وأن الدعوة قد وجهت إليه أصلا كممثل لجريدة السياسة. فاعتذر عنها لظروف عمله. وأناب عنه صديقه وزميله الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني[٧١] ويقول المازني في رحلته إنه قد قام بهذه المهمة الصحفية وإنه كان وزملاؤه الصحفيون العرب يبعثون «التلغرافات» من الحجاز إلى مكاتب صحفهم في مصر[٧٢]

أما عبد الوهاب عزام فقد زار البلاد السعودية أكثر من مرة. وكتب عنها في «رحلاته الأولى» و«رحلاته الثانية» – في الأولى قدم إلى الحجاز ضمن أعضاء بعثة جامعة فؤاد لأداء فريضة الحج سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م[٧٣]. وفي الثانية قدم كوزير مفوض للحكومة المصرية في جدة سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م وقد تمكن في المرة الأخيرة من التجول في مناطق الحجاز ونجد. ويدون ملاحظاته عنها. يقول إنه قطع الطريق من جدة إلى المدينة المنورة

تسع مرات بالسيارة عبر مراحل متعددة[٧٤] . بينما لم تمكنه زيارته القصيرة الأولى الا من وصف مناسك الحج ووصف سريع مقتضب . وتسجيل مشاهداته عن بعض الآثار الإسلامية التي وقف عليها .

ولا يختلف كتاب الأستاذ علي الطنطاوي من نفحات الحرم عن كتاب عبد الوهاب عزام من حيث كونه سجلاً لرحلات متعددة . فقد نشر الكاتب في فترات متفرقة عن الأراضي المقدسة . أقدمها وأهمها تلك الرحلة التي قام فيها لأول مرة لأداء فريضة الحج مع الوفد السوري سنة ١٩٣٥ م . مفتتحاً بها طريق الحج البري بالسيارات

ورحلة بنت الشاطىء (أرض المعجزات رحلة في جزيرة العرب) سنة ١٩٥١ م . كانت وليدة رغبة متأصلة في نفس الكاتبة بزيارة الأراضي المقدسة . وبواكير الصدفة قد لعبت فيها دوراً كبيراً تقول : (في صيف عام ١٩٥١ . تلاقى جمع من أساتذة جامعة القاهرة وطلابها ، يتحدثون في أمر عطلة الصيف هذا العام التي كانت تدبر لذلك . فاختار فريق أن يذهب الى السودان ليتعرف الى الجوانب الجنوبية . وآثر آخرون أن يتجهوا الى الحجاز معتمرين زائرين . وهي رحلة كانت جديرة بأن تستهوي كل مسلم . وتحبب اليها دارسي العربية وآدابها والإسلام وتاريخه . فكل قيمة الاشتراك في الرحلة حددت بنحو خمسة وأربعين جنيهاً . فحملت هذه الرحلة دون كلفة تذكر . عجب . ولم يبق منهم سوى عشرة) .

وتقول مؤلفة أرض المعجزات ان برنامج الرحلة كان في بادىء الأمر مقتصراً على جدة ومكة والمدينة وأداء العمرة والزيارة والطواف بالمشاهد التاريخية . غير أن الأمير فيصل آل سعود قد علم بمشروعهم فشملهم برعايته ومكنهم من زيارة مناطق أخرى من المملكة لم تخطر على بالهم . فوصلوا الى نجد وعاصمتها وشرقي الجزيرة العربية حتى الأحساء ومنطقة البحرين . ويذكر أيضاً أنه حين وصولهم الى جدة فوجئوا بابلاغهم أنهم ضيوف حضرة صاحب الجلالة عاهل الجزيرة طوال اقامتهم[٧٥]

ان هذه الرحلات تختلف بطبيعة الحال من حيث تناول الموضوع والفكرة والأسلوب . تبعاً لاختلاف كتابها وظروفهم وتباين مشاربهم وأذواقهم . وقد تقترب من رحلات الحج والزيارة في وصف المناسك والتعبير عن التأملات الروحية ، كما يقترب بعضها من الرحلات العلمية في الاهتمام بالموضوع والتفاصيل والمعلومات أحياناً ولكن يجمعها ، مع ذلك ، الطابع الصحفي في تناول السرعة والاستطراد . وكثير منها قد نشر مسلسلاً في صحف سيارة تخاطب القارىء العادي وتستجيب لرغبته في حب التنقل والتشويق والاثارة . وقد عبّر الأمير شكيب ارسلان عن هذا الطابع الصحفي في رحلته ، والاستطرادات المطالب ، عندما ذكر أنه كان ينشرها مقالات متفرقة في جريدة الشورى ، ثم صيّرها في مستطردات لا حدّ لها والاستحالة الى دون القارىء ، يقول : (ومن حيث اني كنت أصدرها [الرحلة] من وقت الى آخر في جريدة سيارة ، كانت هيئتها أقرب الى أسلوب الجرائد منها الى أسلوب الكتب . لأني أكتب إذ كتبت بين مسوغ وآخر متأثراً بعوامل مختلفة . ملاحظاً المتحدثات اليومية ، مراعياً حال قرائي الروحية . ذهب بي الاستطراد كل مذهب . وشردت بي شجون الحديث فشرّق

والعرب .»(٧٦)

وإذا كان [illegible] قد أراد أن يقدم لقرائه حشداً من معلومات كثيرة متنوعة جغرافية وتاريخية واجتماعية ولغوية وأدبية فإن الشرقي أراد أن يسليهم وأن يثيرهم بوصف بعض المواقف والعادات الاجتماعية التي تبدو غريبة في نظره . فبالغ في رسمها حتى غدت كاريكاتيرية، مضحكة . ومن أكثر هذه الصور في رحلة الشرقي . وهي تنسجم مع صيغته المرحة ، وفي نيته أن ينقد عن طريق التهويل في الوصف والسخرية .

ومن الرحالة الصحفيين من يقع في الخطأ وهو يتحدث عن العرب والطرافة . ويحملها على شيء من الجهل والسذاجة متشابهة أو مماثلة . كقول محمد شفيق مصطفى . في رحلته إلى قلب نجد والحجاز . إن فيصل الدويش هو زعيم قبيلة الأرطاوية وأن سلطان بن حميد هو زعيم قبيلة الغطغط (٧٧) . ومن المعروف أن الأرطاوية هجرة قبيلة مطير . والغطغط هجرة لعتيبة (٧٨) . ويقول في موضع آخر تحت عنوان «عقائد النجديين في الجنة والخلود» . إنه مما يستحق الذكر أن أهل نجد يعتقدون أن النجدي إذا حفظ عبادة الله وطاعته شريعته وأن الجنة محدودة وأن هنالك بعد جنة عدن . ويفرق بين ما يسميه «عقائد النجديين» وبين عقائد الفراعنة في البعث (٧٩) . وهذا كلام لا يحتاج إلى تعليق ، لأنه يدل على عقلية ساذجة من الكاتب . فتلك عقيدة المسلمين جميعهم وليست عقيدة النجديين وحدهم . وهو يكتب عن «النجديين» وكأنه يكتب عن قبائل بدائية من إفريقيا أو الشرق الأقصى .

وإلى جانب الاستطراد والإثارة ، فإن الرحلة الصحفية تشير بطابعها الإعلامي إلى الكشف عن الحقائق المجهولة . والإشادة بما وصلت به البلاد من نهضة وتطور . وقد كانت بلادنا حتى عهد قريب تنقصها وسائل الإعلام الفعالة النشطة التي تستطيع أن تنقل الصورة الحقيقية للحياة في المملكة خارج الحدود . فقد قام هؤلاء الصحفيون والأدباء ، حسب إمكانياتهم ، بهذه المهمة . وتمكنوا من نقل بعض الخطوط المشرقة التي شاهدوها إلى قرائهم في الوطن العربي . ومن هذه الخطوط التي توقفوا عندها طويلاً جانب الأمن ونهضة التعليم وتطور وسائل الحياة الحديثة في البلاد . وقد عبّرت بنت الشاطئ عن دهشتها بتقدم الطائرة التي وصلت بها إلى المملكة سنة ١٩٥١ م . فالطائرة قد حلت محل الجمل في الربط بين أطراف الجزيرة المتباعدة . والرحلة بين جدة والظهران لم تستغرق سوى أربع ساعات ، وتقف مذهولة متعجبة لتلك الطفرة . وقد جسدت حوارها في الطائرة إحدى البدويات

«هكذا من الناقة إلى الطائرة في وثبة واحدة ؟
هكذا من الهودج إلى صالون داكوتا وبريستول ؟
هكذا من ماء الأمطار ونعود إلى شرب الأناناس والكوكاكولا !

يا لها من وثبة عاتية . لم تمر بمراحل التطور التي مررنا بها . لم تعرف بلدها من قبل العربة أو السيارة . ولا زالت حتى اليوم . قطاراً يجوس خلالها ويفرق بين كثبانها ووهادها»(٨٠) .

وتكمل أرض المعجزات، التي تقول عنها بنت الشاطئ، انها قد غيرت بالإسلام قبل أربعة عشر قرناً تاريخ العالم . وقررت مصاير دول وشعوب وعروش وتيجان وحضارات وديانات . واليوم يكتب لها أن تدفع سيل الزيت دافقاً كالدم الحار في شرايين الذهب فتشارك في تقرير المصير لعالم اليوم»(٨١) .

وفي رحلتها الثانية سنة ١٩٧٢ م ، تدهش بنت الشاطئ ، لما وصلت اليه الفتاة السعودية من تقدم كبير في مضمار التعليم . وقد عهدتها في زيارتها الأولى سنة ١٩٥١ م جاهلة خاملة متخلفة تقبع وراء الأسوار . تقول :

«وتركت الجزيرة ، من عشرين سنة ، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات . المدنية العصرية غزت بيوت نجد والأحساء ، فسمحت للصور والسينما والراديو بدخول أجنحة الحريم ولم تسمح بدخول الكتاب . ومضى جيل وجاء جيل ، فتحت فيه أبواب العلم الموصدة في وجوه البنات ، ويجتزن المراحل الى التعليم العالي . وهؤلاء هن في (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) . يوشكن أن يتممن مرحلة التأسيس . ويحققن ما لم يجرؤ عهد الجاهلي الراحل على الخوض فيه . فذلك ما تعهد به فيصل . الذي جعل لتعليم البنات في المملكة رئاسة خاصة تعوض ما فات . وتصل ما انقطع من ماضي هذه الأمة . يوم كانت المرأة تشارك في صنع تاريخها مشاركة ذات بال . وتفرض وجودها الفعال المؤثر على حياة قومها في الجاهلية والإسلام»(٨٢) .

الهوامش والمصادر

(١) انظر شوقي ضيف . الرحلات ، ص ٦ — ٨
(٢) [illegible] الرحلات من [illegible] ، وهي لا ترد في [illegible] . وقد [illegible] مجلة العربي ، [illegible] مجلة العربي ، ج ٦ ، ص ٤ ، ذو الحجة ٨٩ هـ فبراير ٧٠ م ، ص ٤٧٣ . و[illegible] مجلة العربي ، ج ٥ ، ٦ ص ٩ ، ذو القعدة ٩٤ ، يناير ٧٥ م ، ص ٣٢١ — ٣٣٦
(٣) أدب الرحلة عند العرب . (الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٦ م)
(٤) شوقي ضيف : المصدر نفسه ، ص ٧١
(٥) كراتشكوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي العربي . تعريب صلاح الدين عثمان (لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٣) . القسم الأول ص ٣٤٩ — ٣٥١
(٦) المصدر السابق . القسم الأول ، ص ٤٢٨ .
(٧) المصدر السابق . القسم الثاني ، ص ٧٢٨ .
(٨) محمد أديب غالب . (فرنسي يشهد في الرحلات العربية) . مجلة العرب ، ج ٧ ، ص ٧ ، محرم ٩٣ هـ / فبراير ٧٣ م ، ص ٥٥٣
(٩) المصدر السابق ، ص ٥٥٤ .
(١٠) المصدر السابق ، ص ٥٥٦ .
(١١) انظر كراتشكوفسكي . المصدر نفسه . القسم الثاني ، ص ٧٥٣ . ويمكن أن نضرب مثلاً على

ذلك بكتاب ابن معصوم : «سلافة العصر في محاسن أعيان العصر» .

(١٢) أنظر : حمد الجاسر : «في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات الى الحج» ، مجلة العرب ، جـ ٥ ، ٦ ، س ٩ ، القعدة ٩٤ هـ/ ٧٥ م ، ص ٣٢١ — ٣٣٦ .

(١٣) شوقي ضيف ، المصدر نفسه ، ص ١٥ .

(١٤) كراتشكوفسكي ، المصدر نفسه ، القسم الأول ، ص ٢٦٠ .

(١٥) المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(١٦) لقد عبّر خير الدين الزركلي أحسن تعبير عن طبيعة فن الرحلة عندما سمى رحلته الى الحجاز ، سنة ١٩٢٠ م : «ما رأيت وما سمعت» ، وهو يقول فيها :

«... وانما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت نقل المحدّث لا المؤرخ ، والمصوّر لا الكاتب ، متحريا ايراد الحقيقة كما هي عارية مجردة . ولو استطعت لأخذت بيد القارىء أريه ما وقعت عليه عيناي ، وأسمعه ما وعته أذناي . على أن الخبر قد يغني عن الاختبار ، وفي الرواية ما قد يغني عن المشاهدة» .

ما رأيت وما سمعت (المطبعة العربية ومكتبتها بمصر ، ط ١ ، القاهرة ١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٣ م) ، ص ١١١ .

(١٧) حمد الجاسر : «في رحاب الحرمين — من خلال كتب الرحلات الى الحج» ، مجلة العرب ، جـ ٥ ، ٦ ، س ٩ ، ذو القعدة والحجة ٩٤ هـ/ يناير ٧٥ م ، ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

(١٩) انظر مقالته : «كتب الرحلات» ، مجلة العرب ، جـ ٩ ، س ٦ ، ٩٢ هـ/٧٢ م ، ص ٧٤٦ — ٧٥١ . ويقول الأستاذ حمد الجاسر إن الكتاني لم يبين ما يتعلق من هذه الرحلات بالحجاز — انظر : «جولة في المغرب العربي» مجلة العرب ، جـ ٩ ، س ٧ ، ٩٣ هـ/٧٣ م ، ص ٦٤١ — ٦٤٢ .

(٢٠) الزركلي : المصدر نفسه ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٢١) انظر فؤاد حمزة : البلاد العربية السعودية (مطبعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٣٥٥ هـ/١٩٣٧م) ، ص ٧٨ .

(٢٢) لعله من المفيد أن نورد هنا ثبتا بالحوادث المهمة في تاريخ هذه الوحدة الملحمية التي كان بطلها المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود : فتح الرياض : ١٩٠٢ ، ضم الخرج والمحمل والشعيب والوشم : ١٩٠٢ — ١٩٠٣ ، فتح القصيم : ١٩٠٣ — ١٩٠٦ ، القضاء على الثورات الأهلية : ١٩٠٩ ، فتح الاحساء : ١٩١٣ ، التوسع الى تربة والخرمة : ١٩١٩ ، ضم عسير : ١٩٢١ ، فتح حائل والجوف : ١٩٢١ ، الاستيلاء على الحجاز ١٩٢٤ — ١٩٢٥ ، بسط الحماية على تهامة : ١٩٢٦ ، القضاء على الفتن الداخلية : ١٩٢٨ — ١٩٣٢ . أنظر فؤاد حمزة : المصدر نفسه ، ص ١٩ — ٢٠ .

(٢٣) وفي اواخر العهد التركي كتب محمد كرد علي رحلته التي اسماها : «الرحلة الأنورية الى الأصقاع الحجازية والشامية» ، وهي في وصف رحلة أنور باشا ، وكيل القائد الأعظم وناظر الحربية في الدولة العثمانية — الى المدينة المنورة وسورية وفلسطين — وتقع في حوالي ثلاثمائة صفحة ، وقد طبعت في بيروت سنة ١٩١٦ .

(٢٤) مع أن ابراهيم رفعت قد سبق البتنوني في رحلاته الأربع الى الحجاز ، كما رأينا ، إلا أنه لم ينشر ما سجله عن تلك الرحلات الا بعد ظهور كتاب البتنوني بمدة طويلة ، سنة ١٩٢٥ . لذلك نراه يرجع الى البتنوني في بعض المواضع من كتابه .

(٢٥) نشرت متجمعة في مجلة «المنار» في الجزءين ١٩ ، ٢٠ سنة ١٩١٦ — ١٩١٧ م وسنة ١٩١٧ — ١٩١٨ ، ثم جمعت في كتاب ، مع رحلاته الأخرى بعنوان : رحلات الإمام محمد رشيد رضا — جمعها وحققها الدكتور يوسف إيبش ، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ ، بيروت

١٩٧١ م) .

(٢٦) التواريخ التي نذكرها هنا لا تمثل تاريخ الطبع ، بل تاريخ قيام المؤلف بالرحلة . ولا يفوتنا أن نشير في هذا الموضع الى رحلة الأستاذ علي الطنطاوي التي قام بها الى الحجاز مع الوفد السوري سنة ١٩٣٥ ، وقد نشرت سنة ١٩٤٠ م ، وطبعت مرة أخرى ضمن مقالات له أخرى في نفس الموضوع في كتاب : «نفحات الحرم» — (مطابع دار الفكر ، ط ١ دمشق سنة ١٩٦٠ م) .

(٢٧) انظر كتاب :

ويقول المؤلف في هذا الكتاب عن الرحالة الغربيين في اوائل القرن العشرين ، إنهم قد أكملوا العمل الذي بدأه الرحالة السابقون ، ولكنهم كانوا يتجهون الى الجوانب العلمية ، ولم يكونوا رومانتيكيين كأسلافهم . فلا زال أمامهم جزء كبير من الجزيرة العربية لم يحقق علميا من النواحي الجغرافية والجيولوجية وغير ذلك .

(٢٨) انظر : الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ م) ، ص ٣٠١ — ٣٠٤ .

(٢٩) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

(٣٠) انظر أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث (ط ٢ ، بيروت ١٩٦٠ م) ، ص ١٤٦ — ١٥٧ .

(٣١) انظر كتابه : «ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية» (مطابع صادر ريحاني ، ط ٣ ، بيروت ١٩٥١ م) ، جـ ١ ، المقدمة ، ص ١٥ .

(٣٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، المقدمة ، ص ١٨ .

(٣٣) في منزل الوحي (مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٩٣٧ م) ، ص ١٤٤ . لقد كان هيكل في ذلك الوقت من المعجبين بالزعماء والمفكرين الغربيين ، وبسمارك (١٨١٥ — ١٨٩٨) من أبطال المانيا في القرن التاسع عشر ، الذين استطاعوا أن يحققوا لها الوحدة الالمانية .

(٣٤) مرآة الحرمين — أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (مطبعة دار الكتب المصرية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٤٤ هـ/١٩٢٥ م) ، المقدمة ، ص ٣ .

(٣٥) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ٣ — ٤ .

(٣٦) الرحلة الحجازية (مطبعة الجمالية ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٢٩ هـ) ، المقدمة ، ص ٥ .

(٣٧) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ٥ .

(٣٨) المصدر نفسه ، المقدمة ، ص ٦ .

(٣٩) أنظر ، مثلا ، الصفحات : ٦٩ — ٧٣ ، ٩٤ — ١٠١ ، ١٠١ — ١٣٣ ، وانظر أيضا العناوين الآتية : «كيف تحج أيها المسلم — الأدعية المأثورة من الابتداء في الحج الى النهاية منه» ، ص ١٧٢ — ١٧٦ ، «محرمات الاحرام ، جدول بمناسك الحج على المذاهب الأربعة» ص ١٧٦ — ١٧٩ .

(٤٠) يقول كراتشكوفسكي ان هذا الضرب من الرحلات ، الذي يؤلف بناء على تكليف أمير كبير أو لنيل عطفه ، كان مألوفا في العصور الماضية . ومن هذه الرحلات رحلة ابن الجيعان : «القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف» ، والتي وصف فيها رحلة السلطان قايتباي الى الشام . وكان المؤلف ضمن حاشية السلطان . ويقول كراتشكوفسكي : «وقد استمر هذا الضرب من الرحلات مزدهرا لعدة قرون ، بل اننا نلتقي به في القرن العشرين في وصف مشابه ، ولكنه يقوم على اساس مخالف كل المخالفة ، أعني رحلة البتانوني التي رفعها الى خديو مصر عباس حلمي» . المصدر نفسه ، القسم الثاني ، ص ٤٧٦ .

(٤١) انظر مثلا الى نماذج من تقارير ابراهيم رفعت ، وهي قليل من كثير : «تذاكر السفر في شركة البواخر»

(جـ ٢ ، ص ١٦٥) ، «جدول بما لكل عامل في العمل من الجمال والخيام وغيرها» (جـ ٢ ، ص ١٦٢) الخ . ولقد كان بإمكان المؤلف أن يفرد قسما خاصا في آخر الكتاب يجمع فيه ما يريد الحاقه من تقارير ووثائق ومستندات وما الى ذلك .

(٤٢) في منزل الوحي ، تقديم ، ص ١٠ .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٤٥) ملوك العرب ، المقدمة ، ص ١٨ .

(٤٦) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٤٧) المصدر السابق ، المقدمة ، ص ١٩ .

(٤٨) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٦٧ .

(٤٩) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢ .

(٥٠) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٣ .

(٥١) ما رأيت وما سمعت ، ص ١١٤ .

(٥٢) ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ ، ٢٥٧ وما بعدها .

(٥٣) انظر حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١ القاهرة ١٩٣٥) ، ص ٢٤٠ .

(٥٤) سنتحدث عن ذلك بالتفصيل في القسم الذي سنخصصه للحديث عن الرحّالة ومواقفهم .

(٥٥) ملوك العرب ، المقدمة ، ص ١٢ .

(٥٦) جورج غريب : أدب الرحلة — تاريخه وأعلامه (دار الثقافة ، ط ١ ، بيروت ١٩٦٦ م) ، ص ١٠٥ .

(٥٧) ما رأيت وما سمعت ، انظر ص ٣ — ٢٧ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٦١) المصدر السابق ص ١١١ .

(٦٢) من ص ٢٧ الى ص ١٠٩ ، وانظر حديثه عن البادية — تقاليدها وأدبها ، من ص ١٣٧ الى ص ١٨٦ . في حين أن مجموع صفحات الرحلة لا يتجاوز ١٩٠ صفحة .

(٦٣) ص ١٠٨ .

(٦٤) انظر ترجمته في الأعلام ، جـ ١٠ (المستدرك) ، ص ٢٥٧ .

(٦٥) صحيفة موجزة — (مطبعة نهضة الشرق ، الاسكندرية ، سنة ١٣٤٥ هـ) .

(٦٦) ثم طبعت بعد ذلك في مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م .

(٦٧) في قلب نجد والحجاز ، ص ٧ .

(٦٨) رحلة الى الحجاز (مطبوعات الجديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٣ م) ، ص ٧ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ١٠ — ١١ .

(٧١) في منزل الوحي ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٧٢) رحلة الى الحجاز ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٧٣) رحلات عبد الوهاب عزام — الرحلات الأولى (مطبعة الرسالة ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٠ م) ، انظر

مقدمة الطبعة الأولى .

(٧٤) رحلات عبد الوهاب عزام — الرحلات الثانية (مطبعة الرسالة ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥١ م) ، ص ٣٦٣ .

(٧٥) أرض المعجزات — رحلة في جزيرة العرب (سلسلة «اقرأ» ، دار المعارف ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٩ م) ، ص ٧ — ٩ .

(٧٦) الارتسامات (مطبعة المنار ، ط ١ ، القاهرة ١٣٥٠ هـ) ، ص ٤ . يقول ارسلان انه عدل بعد ذلك عن نشر مقالاته في جريدة الشورى ، لأن ذلك يأخذ وقتا طويلا ولا ينتهي في أقل من ستين أو ثلاث ، وانصرف الى اكمال التصنيف فورا — فكان ما نشر في «الشورى» نحو الثلث ، وما لم ينشر في الشورى ولا في جريدة غيرها نحو الثلثين . ص ٤ — ٥ .

(٧٧) في قلب نجد والحجاز ، ص ٤١ .

(٧٨) انظر أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته (المطبعة العلمية ليوسف صادر ، ط ١ ، بيروت ١٩٢٨) ص ٤١٢ — ٤١٤ .

(٧٩) في قلب نجد والحجاز ، ص ٤٢ — ٤٣ .

(٨٠) أرض المعجزات ، ص ٦١ — ٦٢ . لقد عرفت الدهناء السيارة قبل رحلة بنت الشاطىء بوقت طويل ، اذ يشير فؤاد حمزة في كتابه : قلب جزيرة العرب (المطبعة السلفية ، ١٩٣٣) انه اجتاز الدهناء في طريقه من الكويت الى الرياض بالسيارة يوم ١٨ يوليه سنة ١٩٣٢ — انظر الهامش ، ص ٣٢ . ولم يكن فؤاد حمزة أول من خاض تلك المغامرة . ومعنى هذا ان السيارات كانت معروفة ومنتشرة في البلاد السعودية قبل سنة ١٩٥١ ، خلافا لما نقله بنت الشاطىء .

(٨١) المصدر السابق ، المقدمة .

(٨٢) أرض المعجزات ولقاء مع التاريخ (دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٢ م) ، ص ١٨٠ — ١٨١ .